تعدد اللهجات العربية القديمة ودوره في إذكاء الاختلاف النحوي

The Multiplicity of Ancient Arabic Dialects and Their Role in Fueling Grammatical Disagreement

طالبة الدكتوراه/ مولاتي زينة
الأستاذ الدكتور/ كرشو لزهر

قسم اللغة العربية وآدابها-جامعة الشهيد حمّه لخضر-الوادي(الجزائر)
بحوث في الأدب الجزائري ونقده، جامعة الوادي.
moulati-zina@univ-eloued.dz

تاريخ الإيداع: 2025/08/03 تاريخ القبول: 2026/04/16 تاريخ النشر: 2026/09/15

ملخص:

كثيرا ما تمر بنا الشواهد اللغوية لفصحاء العرب أو قراءات مختلفة لآيات الذكر الحكيم وهي تحمل ما تحمله من لفظ غريب أو وزن مخالف أو تركيب يندُر دورانه ، هذا الاختلاف الذي كان كثيرا ما يُعزيه النحاة إلى اختلاف لغات العرب ثم تجد تعقيبات القدامى عليها أنها لغة، أو لغة كذا؛ من تميم أو هذيل أو قضاعة وغيرها، بعد إقصائها من القاعدة النحوية ومن الفصحى، وركنها جانباً في خانة الشذوذ! فيتبادر إلى ذهنك اعتراض؛ لماذا؟! وتتداعى وراءه تساؤلات عِدّة حول تلك اللغات - أو كما يسميها الدرس اللغوي الحديث لهجات- وماهيتها وتموقعها في الدرس اللغوي، وأهمّيتها. انطلاقا من هذا السياق كانت هذه الورقة البحثية التي عنونتها بـ: **تعدد اللهجات العربية القديمة ودوره في إذكاء الاختلاف النحوي.**

لأستعرض فيها مفهوم اللهجة ومكوّناتها، والظروف التي أوجدتها قديما في شبه الجزيرة العربية، وكيف تعامل اللغويون والنحاة مع هذا الواقع اللغوي في خلال جمعهم للغة وتقعيدهم القواعد، وكيف أثّر هذا الاختلاف اللهجي على القاعدة النحوية.

الكلمات المفتاحية: اللهجات العربية، القبائل العربية، اللهجة، اللغة، الاختلاف النحوي، القاعدة النحوية.

Abstract:

We frequently encounter linguistic testimonies from eloquent Arabs or different interpretations of verses from the Noble Quran that incorporate unfamiliar expressions, variant morphological patterns, or syntactic constructions that are rarely encountered. Grammarians often attributed this variation to the differences among Arab languages, and we find ancient commentaries describing them as 'a language' or 'the language of such-and-such tribe'—whether Tamim, Hudhayl, Quda'a, or others—after excluding them from grammatical rules and Classical Arabic, relegating them to the category of anomaly. This naturally provokes an objection in one's mind: why? This is followed by several questions about these languages—or, as modern linguistic studies refer to them, dialects—their nature, their position in linguistic study, and their significance. From this context emerged this research paper, entitled 'The Multiplicity of Ancient Arabic Dialects and Their Role in Fueling Grammatical Disagreement'.

In this paper, we examine the concept of dialect and its components, the circumstances that gave rise to them in ancient times in the Arabian Peninsula, how linguists and grammarians addressed this linguistic reality during their collection of the language and codification of rules, and how this dialectal variation influenced grammatical norms.

key words:Arabic dialects, arab tribes, dialect, language, grammatical variation.

أهمية الدراسة:

تهدف الدراسة إلى فهم أعمق لطبيعة اللغة العربية، وبنيتها التاريخية والاجتماعية، وتَبيُّن الأثر البعيد لتنوع لهجاتها القديمة كخلفية للاختلاف النحوي وتعدد الأوجه النحوية، والاعتراف بأن التنوع اللهجي جزء أصيل في اللغة، أقرّته ووثّقته القراءات القرآنية، ومن ثمّ إبراز مرونة اللسان العربي وثرائه برغم صرامة المنهج المعياري الذي يهمش تلك الظواهر اللهجية ويحجر اللغة.

خطة البحث:

للإجابة عن تساؤلات البحث وإثراءً الموضوع اشتملت هذه الورقة على جملة من العناوين وهي:

- اللهجة : لغة اصطلاحا.

- مستويات اللهجة.

- عوامل تكون اللهجات.

- الواقع اللغوي في شبه الجزيرة العربية

- عناية القدامى باللهجات

- موقف النحاة من اللهجات.

- نماذج من الاختلاف النحوي بسبب التعدد اللهجي

- خاتمة: تتضمن نتائج الدراسة

وفيما يلي بيان وتفصيل ذلك:

1- مقدمة:

نظراً لاتساع الجزيرة العربية وتعدّد قبائلها والتي اتخذ كل منها موطنا مختلفا في أرجاء الجزيرة، فقد تمايزت لهجات تلك القبائل التي يجمعها اللسان الواحد؛ اللسان العربي، لكنها تختلف في بعض الخصائص الصوتية والتركيبية والمعجمية، فبرزت من ذلك لهجات عديدة، أو لغات كما أطلق عليها القدامى، من مثل قريش وتميم وهذيل وغيرهم كثر، هذا التعدد كان له أثره الواضح على قواعد اللغة، فلغات العرب هي المادة الخام التي اعتمدها النحاة في تقعيد القواعد، وهو ما أدّى إلى ظهور مدارس نحوية مختلفة باختلاف منهجها في التعاطي مع الواقع اللغوي في تلك الأزمنة.

2- اللهجة:

أ- لغة:

جاء في معاجم اللغة: اللَّام والهاء والجيم أصل صحيح يدلُّ على المثابرة على الشيء، ولهج بالأمر لهجاً ولهوجاً وألهج أولع به واعتاده، والفَصيل يلهج بأُمِّه إذا اعتاد رضاعها، واللَّهجة: طرف

اللِّسان، وجرس الكلام، ويقال فُلان فصيح اللَّهْجة واللَّهَجة، وهي لغتُه التي جُبِل عليها فاعتادها ونشأ عليها، وسمِّيت لهجة لأنَّ كُلًّا يلهَجُ بلغته وكلامه[1].

فاللهجة إذا لغة تدل على معاني التعوّد الناتج عن الأُلْفة والنشأة، لذلك فاللهجة التي نتكلم بها هي اللغة الأُم التي كبرنا ونشأنا عليها وألفناها وتعودنا النطق والتكلُّم بها في مختلف مواقفنا الحياتية، حتى الرسمية منها أحيانا.

ب- اصطلاحا:

اللهجة: طريقة معينة في الاستعمال اللغوي توجد في بيئة خاصة من بيئات اللغة الواحدة.

يعرفها بعضهم بأنّها: «العادات الكلاميّة لمجموعة قليلة من مجموعة أكبر من الناس تتكلم لغة واحدة. وهذه الطريقة أو العادة الكلامية تكون صوتية في غالب الأحيان»[2].

ويعرّفها إبراهيم أنيس بأنها: مجموعة من الصِّفات اللغويَّة تنتمي إلى بيئة خاصة، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة. وبيئة اللهجة هي جزء من بيئة أوسع وأشمل تضمُّ عدَّة لهجات، لكل منها خصائصها، ولكنَّها تشترك جميعاً في مجموعة من الظواهر اللغويّة التي تيسّر اتصال أفراد هذه البيئات بعضهم ببعض، وفهم ما قد يدور بينهم من حديث، فهماً يتوقف على قدر الرابطة التي تربط بين هذه اللهجات.

وتلك البيئة الشاملة التي تتألف من عدة لهجات، هي التي اصطلح على تسميتها باللغة. فالعلاقة بين اللغة واللَّهجة هي العلاقة بين العام والخاص. فاللغة تشتمل عادة على عدّة لهجات، لكل منها ما يميّزها. وجميع هذه اللهجات تشترك في مجموعة من الصفات اللغويّة، والعادات الكلامية التي تؤلف لغة مستقلّة عن غيرها من اللغات[3].

وكل لغة كانت يوما ما لهجة من لهجات كثيرة للغة من اللغات، ثم حدثت عوامل كثيرة، أدت إلى موت اللغة الأم أو اندثارها، وانتشار كل بنت من بناتها في بقعة من الأرض، مكوّنة لغة لها خصائصها ومميّزاتها، التي تنفرد بها عن أخواتها[4].

وقد كان القدماء من علماء العربية يعبّرون عما نسمّيه الآن باللَّهجة بكلمة اللغة حينا، وباللّحن حينا آخر. يُرى هذا واضحا جليّا في المعاجم العريقة القديمة وفي بعض الروايات الأدبيّة،

فيقولون مثلا: الصقر بالصاد من الطيور الجارحة، وبالزاي لغة(بضمّ اللام وكسرها)، وقد يروى لنا أنَّ أعرابيّا يقول في معرض الحديث عن مسألة نحويّة: ليس هذا لحني ولا لحن قومي.

والعرب القدماء في العصور الجاهلية وصدر الإسلام لم يكونوا يعبّرون عما نسمّيه نحن بـ"اللغة" إلا بكلمة "اللسان"، وقد يستأنس هذا الرأي بما جاء في القرآن الكريم من استعمال كلمة "اللسان" وحدها في معنى اللغة نحو ثماني مرات[5].

3- مستويات اللهجة:

وتتميّز بيئة اللهجة بصفات صوتية خاصة تخالف كل المخالفة أو بعضها صفات اللهجات الأخرى في اللغة الواحدة. غير أن اللهجة قد تتميّز أيضاً بقليل من صفات ترجع إلى بنية الكلمة ونسجها، أو معاني بعض الكلمات: فيروى أنّ بني أسد كانوا يقولون في سكرى، سكرانة، وأن بعضاً من تميم كانوا يقولون "مديون" بدلا من "مدين". كما تذكر المعاجم أنَّ كلمة "الهجرس" تعني القرد عند الحجازيين، وتعني الثعلب عند تميم[6].

أمَّا تلك الصفات الصوتية التي تميّز اللهجات، فيمكن أن تلخّص في النقط الآتية:

- اختلاف في مخرج بعض الأصوات اللغويّة.

- اختلاف في وضع أعضاء النطق مع بعض الأصوات.

- اختلاف في مقياس بعض أصوات اللِّين.

- تباين في النغمة الموسيقية للكلام.

- اختلاف في قوانين التفاعل بين الأصوات المتجاورة حين يتأثر بعضها ببعض[7].

4- عوامل تكون اللهجات:

يُعزى تكّون اللهجات إلى عاملين رئيسيين هما:

أ- الانعزال بين بيئات الشعب الواحد و أفراد اللغة الواحدة

فحين تتسع رقعة لغة من اللغات فتفصل بين أبنائها عوامل جغرافية أو اجتماعية يحدث أن تتشعب هذه اللغة إلى لهجات عِدّة، وهو ما ينتج عن تباعد وانعزال، وقلّة احتكاك، فتتكون بيئات لغوية منعزلة تتطوّر منفصلة، كُلُّ واحدة منها على حِدة لا تلبث مع مرور الوقت أن تتطوّر تطوُّراً مستقِلًّا عن غيرها، من هنا تتباعد صفات كل بيئة لغويّة عن الأخرى وتتمايز وتختلف باختلاف الظروف والبيئات.

ويساهم أيضا الانعزال الاجتماعي واختلاف الظروف الاجتماعية بين المجاميع والبيئات اللغوية المنعزلة في تشكُّل اللهجة... فمنها ما تتخذ العلاقة بين أفراد الأسرة شكلا خاصا ونظاما خاصا ومنها ما قد يشيع فيه نوع خاص من المهن، فأبناء البيئات الصناعية أو التجارية لهم من الظروف الاجتماعية ما يخالف أبناء البيئة الزراعية، والذين يعيشون في بيئة زراعية مستقرّة يتكلّمون لهجة غير التي يلهج بها من يعيشون في بيئة صحراوية بادية[8].

ب- الصراع اللغوي نتيجة غزوٍ أو هجرات إلى بيئات معمورة طلبا للعيش

فقد يغزو شعب أرضاً يتكلّم أهلها لغة تختلف عن لغته فيحدث صراع عنيف بين اللغتين الغازية والمغزوّة، ينجم عنه إمّا القضاء على إحدى اللغتين إذا كانت إحداهما غالبة. أو تنشأ لغة مشتقة من كلتا اللغتين تشتمل على عناصر من هذه وأخرى من تلك نتيجة الاحتكاك والتأثر. ويطول زمن الصراع أو يقصر على حسب قرب اللغتين الغازية والمغزوة أو تباعدهما، وعلى قدر اعتزاز أهل اللغة بلغتهم، وتمسكهم بتقاليدهم وعاداتهم، ومقدار اختلاطهم بمتكلمي اللغة الأخرى.

وعادة الفئة المغلوبة التي تعتزّ بصفات الغالب وبكل ما جاء به، بما في ذلك اللغة ، عادة لا تلبث في صراعها إلا زمنا قصيرا بعده لتنهزم، وتقلّده وتنصهر فيه تاركة بدورها آثارا ولو ضئيلة في اللغة الغالبة، تكاد تنحصر تلك الآثار في صفات صوتية خاصة، أو بضع كلمات وأساليب تستعيرها هذه من تلك.

والأمثلة عديدة عبر التاريخ للصراع اللغوي، فقد استطاعت اللغة العربية أن تصرع كثيرا من اللغات في مهدها وتحلّ محلّها، فقد تغلّبت على الآرامية في العراق والشام، وعلى القبطية في مصر، والبربرية في بلاد المغرب، وفي المقابل تركت هذه اللغات فيها آثارا[9].

وهناك من يضيف إلى ذلك الأسباب الفردية ويقرر أن اللغة وإن كانت واحدة فهي متعدِّدة بتعدُّد الأفراد الذين يتكلَّمونها، ومن المسلَّم به أنَّه لا يتكلَّم شخصان بصورة واحدة لا تفترق[10]، لأنّ «الكلام عملية عضوية لا تؤدى دائما بشكل واحد، فلا تلبث الأجيال المتعاقبة أن تتوارث صوراً

مختلفة منه، ثم تتراكم تلك الاختلافات حتى تصبح صفة»[11] وحتى في الظروف الطبيعية فاللغة تتطوّر مع الأجيال التي تتداولها، فلغة الشباب تختلف عن لغة المسنّين، ولطالما لاحظنا بعض المسمّيات والتراكيب التي يستعملها آباؤنا ويتداولونها بين أبناء جيلهم وتخلينا عن استعمالها لسبب أو لآخر.

وأيّا كانت الأسباب ما نستخلصه هو أن وجود لهجات في أي لغة هو ظاهرة صحية وطبيعية نتيجة كثرة مستعمليها وتفرّقهم في البلاد وتفاعلهم مع البيئة الطبيعية والاجتماعية ومختلف الظروف الحياتية وتأثرهم بها.

5- الو اقع اللغوي في شبه الجزيرة العربية:

لا تختلف أسباب وجود اللهجات العربيّة القديمة في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام عما ذكرناه سلفا، فالبيئة الجغرافيّة فيها ممتدّة واسعة ومتنوّعة، تهائم ونجود ووديان وصحارٍ، فيها مناطق للاستقرار والحضر حيث توفّرت أسباب الحياة من ماء وزرع وسبل للتجارة على نحو مكة مكة ويثرب ومدن اليمن الكبرى، وبلاد الحيرة جنوب العراق، وأخرى قاحلة بدوية لا حياة فيها، نمط الحياة في كثير منها حِلٌّ وترحال لا تكاد تستقرّ على حال، لهذا شهدت هجرات بشرية كثيرة تحدّثت عنها كتب التاريخ والأنساب. كان نتيجة ذلك أن انعزلت قبائلها وتطوّرت لغاتها بشكل مستقل، ما أدّى إلى تكوّن ظواهر لهجيّة ميّزت قبيلة عن أخرى فتعدَّدت اللَّهجات وإنْ جَمَعَها اللسان العربيّ الواحد. وقد تنجم تلك التطوّرات اللغويّة نتيجة الأخطاء المتراكمة التي لم تُقوَّم حين تربو الأجيال الناشئة في عزلة عن أهلهم ورقابتهم قليلي الاتصال برجال القبيلة، نتيجة الصراعات والنزاعات التي تعجُّ بها البيئة الجاهلية وتعرض القبيلة للغارات لسببٍ أو لآخر، ومع مرّ الأجيال تصبح تلك الأخطاء عنصراً صحيحا متواطأً عليه ومعترفا به بين المتكلّمين في تلك اللهجة[12].

وقد كانت العرب يأخذ بعضها عن بعض بالمخالطة والمجاورة، فربما انتقل لسان العربي عن لغته إلى لغة قبيلة أخرى، وربّما تداخلت اللغات فنشأت من اللغتين لغة ثالثة، على أنّهم في ذلك لا يخرج كل منهم عن قياس نفسه ووزن طبعه، حتى كأنّ ألسنتهم تختلف مثل الاختلاف ما بين أجسامهم وأذواقهم؛ فكل منهم يفصّل من الكلام ويتصرف في وجوه القول على حسب هذا القياس الذي خُلِق فيه وركب في طبعه وكان مظهر قريحته؛ ومن هذه الجهة نشأ بينهم التنافس في إحكام اللغة والمفاخرة بالبيان وانحراف اللسان عن الشذوذ الذي يعتبرونه خِلقِيّا في الألسنة الشاذة، وساعدتهم على ذلك مواقعهم وأيامهم وأسواقهم[13].

ومع تعدّد اللهجات وتمايزها وفي وجود الحاجة إلى اتصال القبائل في مواسم الحج والمواسم التجارية والثقافية أصبح من الضرورة وجود وسيلة للتفاهم تجمع شملهم وتوحد شتاتهم المتنافر، ولا يمكن لذلك أن يتحقق دون لغة موحّدة مشتركة. فالبيئات المنعزلة حين تريد الوحدة تتخذ مركزاً تطمئن إليه لما يمتاز به من نهضة ثقافية ونفوذ سياسي، وكانت مكة أهلا لذلك[14]. والتي كان لها سلطان سياسي يعتز بسلطان اقتصادي عظيم، فقد كان مقدار عظيم جدا من التجارة في يد قريش، وكان هذا السلطان يعتز بسلطان ديني قوي مصدره الكعبة التي كان يحج إليها أهل الحجاز وغيرهم من عرب الشمال، وأخلق بمن تجتمع له هذه السلطات أن يفرض لغته[15].

كانت تلك القبائل بطبائعها متباينة اللهجات، مختلفة الأقيسة المنطقية المودعة في غرائزها، فكان قريش يسمعون لغاتهم ويأخذون ما استحسنوه منها فيديرون به ألسنتهم ويجرون على قياسه، ولو كانوا بادين كسائر القبائل ما فعلوه، ولكنّ نوع الحضارة الذي اكتسبوه من تاريخهم ألان طباعهم وكسر من صلابتهم، فارتفعت لغتهم عن كثير من مستبشع اللغات ومستقبحها، وبهذا مَرَنوا على الانتقاد؛ حتى رقّت أذواقهم، وسمت طبائعهم، وقويت سلائقهم؛ وحتى في آخر أمرهم أجود العرب انتقاءً للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعا، وأبينها إبانة عمّا في النفس[16]. والعرب لم يكونوا أهل كتابة وقراءة إلا قليل منهم، وكانوا يعتمدون على السماع والمشافهة[17]، ولعل ذلك كان من أعظم الأسباب في تكوين العربية على هذا النحو من اللّين والمطاوعة على التغيّر الذي تعاورها في كل عصورها قبل الإسلام إنما هو عدم كتابتها؛ لأنّ ما كتب لا يتغيّر[18].

وبهذا استحالت لغة قريش أفصح اللغات بفضل ذائقتها اللغوية وحسها النقدي، وقد نقل عن الفراء قوله: «كانت العرب تحضر الموسم في كل عام وتحجّ البيت في الجاهلية وقريش يسمعون لغات العرب فما استحسنوه من لغاتهم تكلّموا به فصاروا أفصح العرب، وخلت لغاتهم من مستبشع اللغات ومستقبح الألفاظ»[19].

وقال الجاحظ في البيان والتبيين: «سأل معاوية يومًا: من أفصح الناس؛ فقال قائل: قوم ارتفعوا عن لخلخانية الفرات وتيامنوا عن كشكشة تميم وتياسروا عن كسكسة بكر، ليست لهم غمغمة قضاعة ولا طمطمانية حمير، قال من هم؟ قال قريش»[20].

وليؤدي الخطيب رسالته ويأسر السامعين بقوله وبيانه كان لابدّ أن يتحدّث بلغة تواضعوا عليها وألفوها جميعا فيتحاشى تلك الصفات المحلّية التي تتصل باللهجات من عنعنة أو عجعجة أو كشكشة، والتي نفر منها خاصة العرب وفي كثير من الأحيان كانت موضع سخرية وعدُّوها بُعدا

عن الفصاحة بل تكاد تكون نوعاً من الرطانة والعجمة. وإتقان تلك اللغة الأدبية النموذجية كان موضع فخر بين رؤساء القبائل والخاصة من الناس، يحاولون أن يمتلكوا ناصيتها ويتفنّنوا في نواحي القول بها[21].

وكان من تمام هذه السيادة لهذه اللغة الأدبيّة أن نزل القرآن بها فعزّز الوحدة اللغوية بإقبال العرب عليه وانبهارهم بأسلوبه وبيانه المعجز الذي تحدّى به الخاصة منهم؛ جهابذة البلاغة وأساطين البيان، كما لم يهمل باقي اللهجات حين رُخص بقراءته بالأحرف السبعة تيسيرا ومراعاته لعادات العرب في منطقهم.

واللغة العربية المشتركة كانت مزيجا من اللهجات العربية ولا تنتسب إلى إحداها دون الأخرى كقريش كما هو معروف، بل لغة العرب كافة بدليل أن النصوص الشعرية والنثرية منها موحدة اللغة على اختلاف قبائل أصحابها، ومع وجود هذه اللغة المشتركة احتفظت اللهجات المختلفة ببعض خصائصها اللهجية ، ولقد دخل كثير من هذه الخصائص اللغة الفصحى، ولهجة قريش ليست هي الغالبة على غيرها، ويستدلون لذلك بأنّ تحقيق الهمز في الفصحى فيما أن قريش والحجاز عموما تجنح إلى تخفيفه[22].

6-عناية اللُّغويّين باللهجات:

لم يُعن القدامى من أهل اللغة والنحو بنقل اللهجات عناية خاصة يُعتمد عليها كمادة خام في الدرس اللغوي بل كانت مجرد نصوص مبثوثة هنا وهناك، من شعر أو نثر نسب إلى قبيلته وفي كثير من الأحيان لا يُنسب، واكتفوا في مصنفاتهم بإشارات متفرقة أغلبها يتعلق بمباحث صوتية ودلالية، ولعلّ أصدق تصويرٍ للهجات العرب تحقّق في القراءات القرآنية، فنزول القرآن على سبعة أحرف أبرز الثراء اللهجي للغة العربية ووثّقه[23].

على خلاف المحدثين أمثال إبراهيم أنيس وأحمد علم الدين الجندي وعبده الراجحي وغيرهم، فقد أدركوا أهميتها في الدرس اللغوي والدراسة العلمية للغة وفهم طبيعة اللغة، فأقبلوا على البحث والتأليف حولها متذمّرين من شح المادة ومشقة البحث في تاريخها شبه المفقود، يقول الجندي في مقدمة كتابه اللهجات العربية في التراث: « وكثيرا ما كنت أخرج من الكتاب الضخم بكلمة أو كلمتين إذ اللهجات ليس لها كتاب مسطور، إنما هي نتفٌ وأمشاجٌ في ثنايا كتبهم، وتصانيف رسائلهم»[24]

ويرى إبراهيم أنيس في ذلك بعداً آخر حيث يقول: « ثم اتسعت الدولة العربيّة حتى شملت دُوَلاً كثيرة، فكان لابد لضمان وحدتها والقضاء على عوامل الفرقة فيها ألا تُعطى اللهجات العربية من العناية ما قد يزيد من عصبية القبائل ويُباعد بينها، فأهمل أمرها ولم يرو عنها إلا القليل في ثنايا كتب اللغة والأدب والتاريخ، بل إن ما روي عنها جاءنا مبتوراً ناقصا في معظم الأحيان»[25].

7- موقف علماء اللغة والنحو من اللهجات:

اتخذ النحويّون وعلماء اللغة موقفا فاصلا من اللهجات كان منعرجاً مهمًّا في تشكّل منهج الدرس اللغوي منذ نشأته ورسم معالمه، وفي بناء التصوّر اللغوي العربي، كشف هذا الموقف عن عمق الصراع بين التنوع الطبيعي للغة بوصفها مكوناً حيًّا يتجدد ويتطور متفاعلاً مع حيثيّات المحيط الطبيعي والاجتماعي، وبين النسق المعياري الذي يحاول فرض سيطرته وتحجيرها في قوالب لا تحيد منها قيد أنملة، هذا التباين في الموقف تمثل في بروز منهجين متقابلين من التفكير النحوي تحددت معالمه في مدرستين نحويتين هما: المدرسة البصرية التي تكرس المعيارية الصارمة وتميل إلى القياس والتقنين وتتشدّد تشدّدا جعل أئمّتها لا يثبتون في كتبهم النّحويّة إلا ما سمعوه من العرب الفصحاء الذين سلمت فصاحتهم من شوائب التحضر وآفاته، والمدرسة الكوفية المنفتحة على السماع والتنوع اللغوي وتتسع في رواية الأشعار وعبارات اللغة عن جميع العرب بدويّهم وحضريّهم[26].

ففي عهد التدوين بدأ الرواة يفرّقون بين قبيلة وأخرى، فينسبون الفصاحة لهذه، وينكرونها على تلك، وفق معايير لم تكن دائما لغوية بحتة، وقد أشرنا في العنوان السابق إلى الاعتبارات السياسية والدينية في فرض اللغة هيمنتها، ولطالما مجّد القدامى لغة قريش واعتبروها اللغة المصطفاة المنتقاة من لغات العرب والمثال الأعلى للفصاحة، بتدبير من الله لتهيَّأ لأنْ تَكُونَ لُغةَ كتابِه العزيز ولُغةَ وَحْيِه، لذلك أولوها عناية بالغة. يقول ثعلب في أماليه: «ارتفعت قريشٌ في الفصاحة عن عَنْعَنَة تميم، وتَلْتَلَة بَهْرَاء، وكَسْكَسَة ربيعة، وكَشْكَشَة هوازن، وتضجّع قريش، وعَجْرَفيّة ضبّة، وفسّر تَلْتَلة بَهْراء بكسْر أوائل الأفعال المُضارعة»[27].

ويقول السيوطي نقلا عن الفارابي في كتابه المسمّى بـ"الألفاظ والحروف": «كانت قريشٌ أجود العرب انتقاءاً للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النُّطق، وأحسنها مسموعا، وأبينها إبانةً عمّا في النفس؛ والذين عنهم نُقِلت اللغة العربيّة وبهم اقْتُدي، وعنهم أُخِذ اللّسانُ العربيُّ من بين قبائل العرب هم: قيس، وتميم، وأسد؛ فإنّ هؤلاء هم الذين عنهم أكثرُ ما أُخِذ ومعظمه، وعليهم اتُّكل في الغريب وفي الإعراب والتَّصريف؛ ثمّ هذيل، وبعض كِنانة، وبعض الطائيّين، ولم

يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم، وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضريٍّ قط، ولا عن سكَّان البراري ممّن كان يسكنُ أطرافَ بلادِهم المجاورةِ لسائر الأمم الذين حولهم؛ فإنه لم يؤخذ لا مِن لَخْم، ولا من جذام؛ لمجاورتهم أهل مصر والقبط؛ ولا من قُضاعة وغسان وإياد؛ لمجاورتهم أهل الشام؛ وأكثرهم نصارى يقرؤون بالعبرانية، ولا من تغلب واليمن؛ فإنّهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان؛ ولا من بكر لمجاورتهم للقبط والفرس؛ ولا من عبد القيس وأَزد عمَان؛ لأنّهم كانوا بالبحرين مُخالطين للهند والفُرس؛ ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة؛ ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة، ولا من ثقيف وأهل الطائف؛ لمخالطتهم تجَّار اليمن المقيمين عندهم؛ ولا من حاضرة الحجاز؛ لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدؤوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم، وفسدت ألسنتهم، والذي نقل اللغةَ واللسان العربيَّ عن هؤلاء وأثبتها في كتاب فصيَّرها عِلْماً وصناعة هم أهل البصرة والكوفة فقط من بين أمصار العرب»[28].

ورفضوا الأخذ عن تلك القبائل المتطرفة التي كانت مساكنها في حدود الجزيرة العربية. وقد كان هذا التشديد والانتقاء في الأخذ من لهجات العرب منهج البصريين، وهو لاشك دليل على حرصهم الشديد على سلامة اللغة وخوفهم من تسرب اللّحن إليها.

وهذه القبائل التي اعتمد عليها في الأخذ كما يقول محمد علم الدين الجندي معقباً: هي قل من كثر وغيض من فيض، وهي لا تمثل العربية تمثيلاً كاملاً، ولقد خانهم التوفيق عندما بتروا هذه اللهجات، مع أنها كثيراً ما تفيدنا في حل مشكلات الفصحى وتساعدنا في فهم العربية، وعندما حددوا الأخذ عن قبائل معيّنة فكان استقراؤهم محصورا في نطاق ضيّق، وملاحظاتهم في فهم العربيّة محدودة، ولو أنّهم وسّعوا الأخذ عن القبائل العربية لتفتحت أمامنا طرق جديدة في تاريخ عربيّتنا ولكان منهجهم منهجا تسجيليا يسجّل الظواهر اللهجية المختلفة[29].

وهو ما أشار إليه أبو عمرو بن العلاء بقوله: «ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلّا أقلّه، ولو جاءكم وافر، لجاءكم علم وشعر كثير»[30].

ويطعن الجندي في مقياس الفصاحة الذي وضعه رواة العربية ووزنوا به لهجات العرب، كحجّتهم في اعتبار لهجات تلك القبائل غير فصيحة، لأنّهم يجاورون الأمم حولهم في تخوم الجزيرة، فهم مختلطون بالأعاجم، مع أن قريشاً أيضا كانت لها جولات خارجية واتصلت بالقبائل والأمم المختلفة، ورحلاتهم في الشتاء والصيف مألوفة لدرجة اقترنت بذكرها في القرآن، مع ذلك يعدّون لهجتها الأفصح، ويعتبر لهجاتها فصيحة بدليل أنها موجودة في القرآن[31] كما سنرى.

كما أورد تعارض الروايات حول أفصح العرب وأعربهم مع قائمة الفارابي؛ فمنهم من يعد جرماً فصحاء العرب، ورأى الخليل أن أفصحهم نصر قعين، وعدّهم آخرون أهل السروات؛ هذيل وسراة أزد وأزد شَنوءة، وقيل عليا تميم وسفلى قيس، وقيل هوازن، وقيل خزاعة، واستنتجوا من قول عمر بن الخطاب -ﷺ-: «لا يملين في مصاحفنا إلا غلمان قريش وثقيف» أن ثقيف أفصحهم. هذا الخلاف الشديد في أيّ اللهجات أفصح جعله يشكك في أن العصبية للقبائل المشهورة ذات الصيت كانت هي المعيار الغالب، بدليل غياب القبائل المغمورة[32].

وقد اعترض أبو حيان في شرح التسهيل على ابن مالك وعاب عليه عنايته في كتبه بنقل لغة لخم، وخزاعة، وقضاعة، وغيرهم ، قائلا: «ليس ذلك من عادة أئمة هذا الشأن»[33].

لهذا عندما أقبل الكوفيون على مختلف لهجات القبائل هاجموهم هجوما عنيفا وطعنوا فيهم.

وكيف تُستثنى اللغات والقرآن ذاته وهو ذروة سنام الفصاحة ومنتهى البيان يضم بين دفتيه تآلفا لسانيا متنوّعا، دون إقصاء، كأنه يتنزّل على القلوب ليؤلّفها قبل الأسماع، محتفياً بثراء اللسان العربي وتنوعه. فقد نقل السيوطي قول أبي بكر الواسطيّ في كتابه: الإرشاد في القراءات العشر: «في القرآن من اللُّغات خمسون لغة: لغة قريش، وهُذيل، وكتامة، وخَثعم، والخَزْرج، وأَشْعَر، ونُمير، وقيس عيلان، وجُرْهُم، واليَمن، وأَزْد شَنُوءة، وكِنْدة، وتَميم، وحِمْير، ومَدْيَن، ولَخْم، وسَعد العشيرة، وحَضْرَمَوْت، وسَدوس، والعمالقة، وأَنْمار، وغسان، مَذْحج، وخُزاعة، وغَطَفَان، وسَبأ، وعُمَان، وبنو حَنيفة، وثعلبة، وطَيْء، وعامر بن صَعصعة، وأَوس، ومُزَينة، وثَقيف، وجُذَام، وبَلِيّ، وعُذْرة، وهوازِن، والنَّمر، واليمامة. ومن غير العربية: الفرس، والرُّوم، والنَّبط، والحبشة، والبَرْبر، والسّريانية، والعِبْرانية، والقِبْط»[34].

وأخرج أبو عُبيد عن الحسن قال: «كنَّا لا ندري ما الأرائك؟ حتى لقيَنا رجلٌ من أهل اليمن، فأخبرنا أنَّ الأريكة عندهم: الحَجَلة فيها السّرير[35]. وكذلك قال عمر بن الخطّاب- ﷺ-وكان لا يفهم معنى قوله تعالى: ﴿أو يأخذهم على تخوّف﴾[36] فوقف به فَتىً، فقال: إنَّ أبي يتخوَّفُني حقّي، فقال عمر: اللهُ أكبر، ﴿أو يأخذهم على تخوّف﴾ أيّ: على تنقُّص لهم»[37].

وربما تأثُّرًا وتأسّيًا بالنهج القرآني غلب على الكسائي وهو أحد القراء السبعة ورائد المدرسة الكوفية غلب على منهجه التوسع في الرواية مما جعله يقيم وزناً للغات العرب، قال بن جنّي: «الكوفيّون علّامون بأشعار العرب مطّلعون عليها»[38]. فرأى أن يعاد النظر في هذا التأصيل العام لقواعد النحو، وأن يفسح فيها للقراءات واللغات الشاذة، وبذلك خرج إلى صورة جديدة من

النحو، صورة لا تتفق والمناهج الدقيقة في وضع العلوم التي تقتضي في قواعدها الاطراد والتعميم والشمول، ولكنها على كل حال فتحت الأبواب لا للاحتفاظ بالحروف الشاذة في قراءات الذكر الحكيم فهذه كانت ستحتفظ بها الأجيال العربية لتعلقها بالدين الحنيف وإنما للاحتفاظ بشواذ اللغات واللهجات وصونها وحمايتها من الضياع[39].يقول كارل بروكلمان: «إنَّ معجم العربيّة اللغوي لا يُجاريه معجمٌ في ثرائه، إنَّه نهرٌ تقوم على إرفاده منابعُ اللهجات التي تنطق بها القبائل العربيّة»[40]. ولقد كان الفضل في ذلك لمدرسة الكوفة وأعلامها.

وقد حمل البصريون على الكوفيين حملات شعواء حين وجدوهم يتسعون في الرواية على هذه الشاكلة، وخصّوا الكسائي بكثير منها، قائلين: «إنه يسمع الشاذ الذي لا يجوز، من الخطأ واللحن وشعر غير أهل الفصاحة والضرورات، فيجعل ذلك أصلا، ويقيس عليه حتى أفسد النحو». وكان ذلك بدءاً لخلاف واسع بين المدرستين، مما جعل بعض البصريين يفخر على الكوفيين بقوله: «نحن نأخذ اللغة عن حَرشة الضباب وأكلة اليرابيع؛ أي البدو الخلّص، وأنتم تأخذونها عن أكلة الشواريز وباعة الكواميخ وهو عرب المدن»[41].

وذكر المازني في أخبار النحويين البصريين عن أبي زيد قوله: «قدم الكسائي البصرة فأخذ عن أبي عمرو ويونس وعيسى بن عمر علماً كثيرا صحيحاً ثم خرج إلى بغداد فقدم أعراب الحطمة فأخذ عنهم شيئاً فاسداً فخلط هذا بذاك فأفسده»[42].

وضاق اليزيدي بهم فأنشد قائلا:

كنا نقيس النحو فيما مضى على لسان العرب الأول

فجاءنا قوم يقيسونه على لغى أشياخ قطربل[43]

والحق أنّ الكوفيين أشدُّ احتراماً لما ورد عن لهجات القبائل فلم يهملوا شيئاً، ولهذا كان رجال الكوفة لمّاحين لطبيعة اللغة وفهمها فهما أصيلا، لأنّ كلَّ لهجة تمثِّل حقلاً لغوياً لا يصحُّ إهداره أو الحيف عليه، ولا شك أنّ أيّ لهجة من تلك اللهجات المغمورة قد أمدّت الفصحى بروافد غنية أضافت إلى مَتْنِها إضافات في الدلالة والمستوى الصرفي والصوتي[44].

ولم يكد ينقضي القرن4هـ حتى ظهر من علماء اللغة من لم يفرق بين لغة قبيلة وأخرى وعدَّهم جميعاً سواء في جواز الأخذ عنهم والاحتجاج بكلامهم، فقد أفرد ابن جنّي في كتابه الخصائص بابا مستقلاً أسماه " اختلاف اللغات وكلُّها حجّة" وضرب فيه مثلا؛ ترك إعمال "ما"

لغة التميميين، وإعمالها في لغة الحجازيين، وينكر على من يردّ إحدى اللغتين بصاحبتها، فغاية جهدك -حسبه- أن تتخيّر إحداها فتقوّيها كونها أقوى قياسا من الأخرى، إلّا أن تقلّ إحداها جدّاً وتكثر الأخرى جدّاً، فيجدر الأخذ بالأوسع رواية والأقوى قياسا.

وقد استدلّ ابن جنّي بحديث الأحرف السبعة؛ قولهﷺ: «أُنزل القرآن على سبعة أحرف كلّها شاف كاف»[45] ما يدل على تقديمه للرواية على القياس على نهج القرآن الكريم الذي راعى بهذه الرخصة التنوّع اللهجي وعادات العرب في منطقهم. ولعل هذه الرخصة بالذات هي التي أحرجت النحاة ودفعتهم إلى إعادة النظر في نظرتهم للغات العرب، كيف لا وهي جزء من اللغة التي نزل بها القرآن والقراءات القرآنية.

ثم ينقل نص ثعلب الذي يثني فيه على لغة قريش وينزهها من بعض الصفات التي شاعت في بعض اللهجات؛ عنعنة تميم، وكشكشة ربيعة، وكسكسة هوازن.... ويرى ابن جنّي بتخيّر الأقوى فصاحة والأشيع استعمالا دون تخطئة أيٍّ من هذه اللغات، على أن من اختارها يكون قد اخطأ اختيار الأجود، يقول: «وكيف تصرّفت الحال فالناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطئ، وإن كان غير ما جاء به خيرا منه»[46].

يقول محمد علم الدين الجندي مؤيدا ما ذهب إليه ابن جنّي: «ولو قد سمعوا ما يراه ابن جنّي، وهتاف أبي حيان "كلُّ ما كان لغة لقبيلة قِيس عليه" لسَجَّلوا لهجات القبائل جميعها حفاظا على تاريخ أُمّة، ومجد شعب، ومستودع حضارة»[47].

وهو ما يؤيّده عبده الراجحي الذي يرى أنَّ تمجيد لهجة على حساب أخرى واعتبار إحداها أعلى وأفصح مثلما هو الحال مع لغة قريش هو حكم يرفضه الدرس اللغوي الصحيح والدراسة الموضوعية للغة، ويؤيّد رأيه بقول سابير: «لا معنى لأن نقول إن هناك لغة مهما تكن أكثر فصاحة أو أكثر ارتباطا من لغة أخرى، قد تكون أكثر تعقيداً أو أكثر صعوبة». ويرى بأن ما نسب إلى كثير من لغات القبائلمن عيوب، وزعم أن لهجة قريش تخلو منها، استنادا إلى معرفة منقوصة مبنية على نصوص قليلة مبتورة، يرى أن هذا الحكم لا يخلو من مبالغة ويرجع إلى نوازع المفاخرة بين القبائل والمنافسة، وهو ما جعلهم –برأيه- يتمحلون في تفسير معنى قول النبيّﷺ: «أنا أفصح من نطق الضاد بيد أنّي من قريش» فذهبوا إلى أنَّ (بيد) جاءت بمعنى (من أجل)، انتصاراً للهجة قريش[48].

8- مسائل في الاختلاف النحوي بسبب تعدد اللهجات:

*** لغة أكلوني البراغيث:**

إذا أسند الفعل إلى الفاعل الظاهر، فالمشهور عند جمهور العرب تجريده من علامة التثنية والجمع نحو: قام الزيدان، وقام الزيدون، وقامت الهندات. ومن العرب من يلحقه الألف، والواو، والنون على أنّها حروف دوالّ كتاء التأنيث، لا ضمائر[49].يسميها النحويون "لغة أكلوني البراغيث"، هذه اللغة هي إحدى لهجات العرب القديمة قليلة الشيوع في الفصحى، ولو نلاحظ هي شائعة بشكل كبير في لهجاتنا الحديثة في مختلف البلاد العربية، وهي بلا شك امتداد لتلك. شواهدها وفيرة في كلام العرب والقرآن الكريم وقراءاته وحتى في الصحيح من الحديث النبوي، منها:

- قول أميّة بن أبي الصلت: يَلُومُونَنِي فِي اشْتِرَاءِ النَّخِيـ ـلِ أَهْلِي، فَكُلُّهُمُ أَلُومُ

- وقول ابن قيس الرقيات: تَوَلَّى قِتَال المَارِقِينَ بِسَيْفِهِ وقد أَسْلَمَاه مبعدٌ وحميمُ

- قول الفرزدق يهجو بها ابن عفراء الضبي: ولكن ديافي أبُوه وأمُّه بحوران يَعْصِرْنَ السَّلِيطَ أَقَارِبُه

وقد جاء القرآن بأمثلة من هذه اللهجة في قراءات متواترة فقال تعالى:

- ﴿وأسرّوا النجوى الذين ظلموا﴾ [الأنبياء:3]

- وقال: ﴿ثم عموا وصمّوا كثير منهم﴾ [المائدة:71]

ومن الحديث النبوي:

- عن أبي هريرة - ﷺ-أن الرسولﷺ قال: « يَتعاقَبون فِيكمْ ملائكةٌ بالليل ومَلائكةٌ بالنهارِ، ويجتمعونَ في صلاة الفجرِ وصلاةِ العصرِ، ثمَّ يعرُجُ الذين باتوا فِيكمْ، فَيسْأَلُهم –وهوَ أعلمُ بهم-: كيفَ تَركتُمْ عِبادي؟ فيَقولونَ: تركناهم وهم يصلُّون، وأَتَيْناهُم وهم يُصَلُّون»[50]

ويعلل بعضهم هذا التركيب معللا قائلا:«... ليدل على أنّه لاثنين أو لجماعة كما تلحقه تاءُ التأنيث دلالة على أنّه لمؤنث.والشائع في كلامهم إفراده، لأنّ مابعده من ذِكْر الاثنين والجماعة يُغني عن تثنيته وجمعه، وأمّا تأنيثه فلازمٌ، لأنّ الاسم المؤنث قد يقع لمذكر، فلو حذفت علامة التأنيث من فعل المؤنث لالتبس بفعل المذكر»[51].

وعُزِيت هذه اللغةإلى قبائل لِطّيء وأزد شنوءة[52]، وهي مذهب طائفة من العرب وهم بنو الحارث بن كعب[53]؛وطيءقبيلة يمنية تنسب إلى كهلان، تسكن في شمال الحجاز حيثجبلاها المشهوران أجأ وسلمى، وأما أزد شنوءة ففرع من الأزد اليمنية وكانت تنزل في سروات الحجاز الجنوبية، وبلحارث في شمال اليمن[54].

واختلف النحويون حولها إلى ثلاث مذاهب[55]:

الأول: الألف والواو والنون حروف دوالّ تدلُّ على تثنية الفاعل أو جمعه، مثلها مثل تاء التأنيث.

الثاني: أنها ضمائر اتصلت بالفعل فهي فواعل، والاسم الظاهر المرفوع بعدها بدلٌ منها.

الثالث: أنها ضمائر اتصلت بالفعل فهي فواعل، والاسم الظاهر المرفوع بعدها مبتدأ، والجملة المتقدمة خبر.

يقول السيوطي: «والصحيح الأول، لنقل الأئمة أنها لغة»[56]

ويُلْمح في التسمية "أكلوني البراغيث" انتقاص وحطّ من شأنها، ونسبتها إلى لغة التخاطب والتافه من الاستعمال، حتى أن ابن مالك قال: «هي لغة قليلة» وأطلق عليها "لغة يتعاقبون فيكم"[57] احتراما لاستعمال النبيّﷺ لها.

وهناك من يعدُّ أن هذه اللغة مرحلة من مراحل التطوّر اللغوي في حياة العربيّة، وأسبق من القاعدة العامة المعروفة الآن، يقول حسن عون: «المرجح أن تكون هذه الطريقة في التعبير أسبق من القاعدة العامة المعروفة الآن وهي إفراد الفعل عندما يتقدّم الفاعل الجمع، فالمعقول أن يجمع الفعل مع الجمع، ويفرد مع المفرد، وقد أحس بهذا الثعالبي وأشار إليه حين اعترف بأصالة هذا التعبير»[58]، يقول الثعالبي: «ربما تفعل العرب ذلك لأنّه الأصل»[59]. ويَعجَبُمن أن النحاة يقررون عكس هذا المبدأ، فيسمون حالة إفراد الفعل مع تثنية الفاعل أوجمعه قياساً، ومطابقته للفاعل تثنيةً وجمعاً خروجاً عن القياس!

ميساء صائب نافع في مقال لها حول لغة أكلوني البراغيث بعد أن أوردت شواهدَ لها من لهجات شبه الجزيرة العربية أخوات العربية من فصيلتها؛ العبرية، والحبشية، والصفوية، والآرامية النبطية، وباعتماد المنهج الموازن، تكشف عن أصالة هذه الظاهرة؛ كونها مشتركة بين العربية

وأخواتها، لتبيّن الخلل الذي وقع فيه علماؤنا القدامى حين عدُّوا هذه الظاهرة عيبا من عيوب اللهجات العربية القديمة، التي رغبت عنها اللغة العربية الفصحى[60].

ومِن مِثلِ هذه المسألة كثيرٌ، مبثوثٌ في كتب اللغة على نحوِ إعمال "ما" الحجازية وإهمالها في لغة تميم، وتخريج قوله تعالى: ﴿إن هذان لساحران قراءة﴾ أبي جعفر على لغة بعض العرب؛ كنانة وبني الحارث بن كعب وبني العنبر وغيرها من القبائل، والتي تجري المثنى بالألف دائما[61].

وقد يحسن أن أشير في هذا الموضع إلى ما أثاره إبراهيم أنيس بعد أن عدد مجموعة من الاختلافات النحوية حول اللهجات بقوله: «والحقُّ أنَّ هذا النوع من الاختلاف الإعرابي لا يمتّ للهجات العربيّة بصلة، وإنّما هو من صناعة النحاة حين اشتدَّ الجدل بينهم وحاول كلُّ فريق أن يأتي بجديد في تلك القواعد الإعرابية التي ملكت عليهم مشاعرهم، وصرفتهم عن كثير من البحوث القيِّمة في اللغة»[62].

ويدلل على رأيه بأنّ الإعراب إنما عنى به الشعراء والخاصة من العرب في لغتهم الأدبية في خطبهم وشعرهم، ولم يكن مظهرا من مظاهر السليقة اللغوية، فلا يلتفت إليه في لغة التخاطب في اللهجات. ويشكك في دعوى أن لسانا يعجز عن نصب أو رفع أو جر يخالف نظام لهجته.

يرد عليه عبده الراجحي بقوله: «نفي الصفة اللهجية على الاختلافات النحوية أمر لا يقره القرآن الكريم ممثلا في قراءاته الصحيحة والشاذة، ولقد رأيت كيف اختلف القراء في الإعراب»[63].

ولعل أقرب ما استحضره في نقض هذا التوجه دعما لرأي الراجحي ما نقلَتْه كتب اللغة والنحو في مسألة "ليس الطّيبُ إلّا المسكُ" والتي ورد فيها: «أن بني تميم يرفعونه (الخبر)حملا لها على "ما" في الإهمال عند انتقاض النفي، كما حمل أهل الحجاز "ما" على "ليس" في الإعمال عند استيفاء شروطها، حكى ذلك عنهم أبو عمرو بن العلاء، فبلغ ذلك عيسى بن عمر الثقفي فجاءه فقال: يا أبا عمرو ما شيء بلغني عنك؟ ثم ذكر ذلك له، فقال له أبو عمرو: نِمتَ وأدلج الناسُ، ليس في الأرض تميميٌّ إلا وهو يرفع، ولا حجازيٌّ إلّا وهو ينصب، ثمّ قال لليزيديّ ولخلف الأحمر: اذهبا إلى أبي مهدي فلقّناه الرفع فإنّه لا يرفع، وإلى المنتجع التميميّ فلقّناه النصب فإنّه لا ينصب، فأتياهما وجهَدا بكل منهما أن يرجع عن لغته فلم يفعل»[64]. ولم يفلحا، وصعب عليهما النطق بما أراداه لهما حتى قال أحدهما «ليس هذا بلحني ولا لحن قومي»

هذا المشهد اللغوي يبيّن أثر الإعراب كصفة لهجية وعادة كلامية على متكلميها، وصعوبة الحيد عنها، مع احتمال وجود عوامل أخرى رافدة؛ نفسية أو اجتماعية، كالعصبية وهي ميزة

العربي تولد معه وتسري في عروقه، واعتزازه بلهجته كجزء من انتمائه وهويته وهي عوامل لا يستهان بها في تأثيرها على تمسك المتكلم بعاداته الكلامية.

9- خاتمـــة:

- من أهم أسباب ظهور لهجات مختلفة تفرعت عن اللسان العربي كثرةُ متكلّميها وانتشارهم في أنحاء الجزيرة، ما أدَّى إلى تنوُّع وثراء اللِّسان العربي.

- اجتهد أهل اللغة والنحو القدامى في جمع المادة اللغوية، وفرضوا معايير صارمة للفصاحة حرصا منهم على سلامتها، ما جعلهم يُقْصون الكثيرَ منها فكان ذلك خسارة للدرس اللغوي.

- اللهجات العربيّة القديمة من المصادر الغنيّة والهامّة للغة وتاريخ تطوّرها، إذ تكشف عن المراحل التي مرت بها في طريق تطوّرها.

- الدراسة الوصفية للغة تضمن فهم الظواهر اللغوية وتحليلها، والانفتاح على اللهجات يعطي مرونة للقاعدة النحوية في تعاملها مع اللغة بوصفها كائنًا حيًّا قابلاً للتطوّر والتنوّع والتفاعل مع مختلف السياقات.

- تنوّع اللهجات العربيّة القديمة من أهم العوامل التي أسهمت في تعدّد الأوجه الإعرابية، والقراءات القرآنية عزَّزت موقع اللهجات وفرضته في الدرس اللغوي.

- الاختلاف النحوي بين البصريين والكوفيين جزء كبير منه منشؤه اختلاف منهج كلٍّ منهم في التعامل مع لغات العرب.

- لم تكن اللهجات مشوَّشا على القاعدة النحوية أو عائقا أمام الكلمة الحاسمة في المسائل النحوية، بل كانت محرِّكا قويّا أثّر في الدرس النحوي بتعدُّد التأويلات والتخريجات التي تنمُّ عن فكر ثاقب وذهن متوقّد قادر على التحليل والتعليل لدى علمائنا القدامى، ولم يُثنِهم اضطراب المنهج والخلافات النحوية، بل زادهم اشتغالاً باللغة واجتهادًا في كشف أسرارها.

- الفروق اللهجية بين القبائل العربية أسهمت في الخلاف النحوي في كثير من القواعد النحوية، ودراسة اللهجات تساعد في فهم طبيعة اللغة وتَفَهُّم الخلاف النحوي.

- اللهجات العربية القديمة تجسيد عالي المرونة للغة الفصحى لا ينفكُّ عنها، وتمثيل للواقع اللغوي في شبه الجزيرة العربية، ولما نطقت به العرب على سجيَّتها قبل أن تُقعَّد القواعد، فاللّهجة أسبق من القاعدة وهي من يحدِّدُ شكلها.

- المتأمل في تعاطي النحاة مع لهجات العرب يدرك أنَّ اللغة كانت عصيّة على المناهج التي حاول النحاة ضبطها وتقنينها من خلالها، وأنَّ إحكام القبضة في الدرس اللغوي يتطلَّبُ مرونةً وفهماً لطبيعتها.

- قائمة المصادروالمراجع:

1- إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط8، 1992م.

2- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل ، صحيح البخاري، دار ابن كثير، دمشق-بيروت،ط1، 2002م.

3- الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد ، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تح: علي محمد معوض، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ط1، 1997م.22

4- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل ، فقه اللغة وأسرار العربية، المكتبة

5- جمال الدين ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تح: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق، ط1، 1964.

6- ابن الجزري، أبو الخير محمّد بن محمّد الدّمشقي النشر في القراءات العشر، المكتبة العصرية،بيروت-لبنان، ط1، 2006.

7- ابن جنّي، عثمان أبو الفتح ، الخصائص، تح: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، دط، دت.

8- حسن عون، اللغة والنحو، مطبعة رويال، الاسكندرية-مصر، ط1، 1952م.

العصرية، صيدا-بيروت، ط2، 2000م.

9- عبده الراجحي، اللهجات العربية في القراءات القرآنية، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1996م، دط.

10- عبد الغفار حامد هلال، اللهجات العربية نشأة وتطورا، مكتبة وهبة، القاهرة، ط2، 1993م.

11- رمضان عبد التواب، فصول في فقه العربية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط6، 1999م.

12- سعيد الأفغاني، من تاريخ النحو العربي، دار الفكر، دط، دت.

13- ابن فارس، أبو الحسين أحمد ، مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، دط، 1979م.
14- السيرافي، أبو سعيد الحسن بن عبد الله ، أخبار النحويين البصريين، تح: طه محمد الزيني،
15- السيوطي،جلال الدين ، الإتقان في علوم القرآن، تح: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق-سوريا، ط1، 2008م18.
16- السيوطي، جلال الدين ، الاقتراح في أصول النحو، تح: عبد الحكيم عطية، دار البيروني، ط2، 2006م.
17- السيوطي، جلال الدين ، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تح: محمد أحمد جاد المولى بك وآخرون، منشورات المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، دط، 1986م.
18- السيوطي، جلال الدين ، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تح: عبد العال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة،دط، 1992م
19- الشنقيطي، أحمد بن الأمين ، الدرر اللوامع على همع الهوامع، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان،ط1، 1999م.
20- شوقي ضيف، المدارس النحوية، دار المعارف ، مصر، القاهرة، ط7، دت.
21- طه حسين، في الأدب الجاهلي، مطبعة فاروق، القاهرة، ط3، 1933م.
22- محمد عبد المنعم خفاجة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط1، 1955م.
23- محمد علم الدين الجندي، اللهجات العربية في التراث، الدار العلمية للكتاب، دط، 1983م.
24- مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، دار الكتب العلمي، بيروت-لبنان، ط1، 2000م.
25- ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، دط، دت.
26- ميساء صائب رافع، لغة أكلوني البراغيث بين العربية ولهجات شبه الجزيرة العربية، مجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم-الجزائر، العدد18، 2018.
27- أبو نصر الفارابي، كتاب الحروف، تح: محسن مهدي، دار المشرق، بيروت-لبنان، دط، 1970م.

- هوامش البحث:

[1]- انظر: ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، دط، دت.، مادة لهج. ابن فارس،أبو الحسين أحمد ، مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، دط، 1979م.، مادة لهج.

[2]- عبد الغفار حامد هلال، اللهجات العربية نشأة وتطورا، مكتبة وهبة، القاهرة، ط2، 1993م، ص33.

[3]- إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط8، 1992، ص16.

[4]- رمضان عبد التواب، فصول في فقه العربية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط6، 1999م، ص73.

[5]- إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، ص16.

[6]- نفسه ، ص17.

[7]- نفسه، ص19.

[8] - انظر: إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، ص21-23.

[9]- نفسه، ص23-25.

[10]- joseph vendryes.langauage . نقلا عن: عبده الراجحي، اللهجات العربية في القراءات القرآنية، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1996م، دط، ص38.

[11]- نفسه، ص40.

[12]- انظر المرجع نفسه، ص39،40.

[13]- مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، دار الكتب العلمي، بيروت-لبنان، ط1، 2000م، ج1، ص74.

[14]- انظر: عبده الراجحي، اللهجات العربية في القراءات القرآنية، ص41.

[15]- طه حسين، في الأدب الجاهلي، مطبعة فاروق، القاهرة، ط3، 1933م، ص108.

[16]- مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، ص75،76.

[17]- إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، ص36.

[18]- مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، ص73.

[19]- السيوطي، المزهر ، نقلا عن: عبده الراجحي، اللهجات العربية في القراءات القرآنية، ص41.

[20]- إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، ص45.

[21]- نفسه، ص47.

[22]- انظر: عبده الراجحي، اللهجات العربية في القراءات القرآنية، ص 44-49.

[23]- انظر: المرجع نفسه، ص39،40.

[24]- محمد علم الدين الجندي، اللهجات العربية في التراث، الدار العلمية للكتاب، دط، 1983م، ص14.

[25]- إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، ص47.

[26]- شوقي ضيف، المدارس النحوية، دار المعارف ، مصر، القاهرة، ط7، دت، ص159.

[27]- جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة، تح: محمد أحمد جاد المولى بك وآخرون، منشورات المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، دط، 1986م، ج1، 211.

[28]- نفسه، الصفحة نفسها. ينظر: أبو نصر الفارابي، كتاب الحروف، تح: محسن مهدي، دار المشرق، بيروت-لبنان، دط، 1970م، ص148.

[29]- انظر: محمد علم الدين الجندي، اللهجات العربية في التراث، ص181.

[30]-جلال الدين السيوطي، الاقتراح في أصول النحو، تح: عبد الحكيم عطية، دار البيروني، ط2، 2006، ص53.

[31]- انظر: محمد علم الدين الجندي، اللهجات العربية في التراث، ص182.

[32]- نفسه، ص184،185.

[33]- جلال الدين السيوطي، الاقتراح في أصول النحو، ص48.

[34]- جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تح: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق-سوريا، ط1، 2008م، ص286.

[35]- نفسه، ص282.

[36]- النحل/47.

[37]- عبد الرحمن بن محمد الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تح: علي محمد معوض، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ط1، 1997م، ج1، ص147.

[38]- جلال الدين السيوطيّ، الاقتراح في أصول النحو، ص156.

[39]- شوقي ضيف، المدارس النحوية، دار المعارف ، مصر، القاهرة، ط7، دت، ص177.

[40]- علم الدين جندي، من كتاب اللهجات العربية في التراث، ص5.

[41]- شوقي ضيف، المدارس النحوية، ص160.

[42]- أبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي، أخبار النحويين البصريين، تح: طه محمد الزيني، محمد عبد المنعم خفاجة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط1، 1955، ص44

[43]- سعيد الأفغاني، من تاريخ النحو العربي، دار الفكر، دط، دت، ص71،72.

[44]- محمد علم الدين الجندي، اللهجات العربية في التراث، ص186.

[45]- عثمان أبو الفتح بن جنّي، الخصائص، تح: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، دط، دت، ج2، ص10، النشر في القراءات العشر، ابن الجزري أبو الخير محمّد بن محمّد الدّمشقي، المكتبة العصرية،بيروت-لبنان، ط1، 2006.ج1، ص23،24.

[46]- بن جنّي،الخصائص، ج2، ص10-12.

[47]- محمد علم الدين الجندي، اللهجات العربية في التراث، ص184.

[48]- انظر: عبده الراجحي، اللهجات العربية في القراءات القرآنية، ص 42،43.

[49]- جلال الدين السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تح: عبد العال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة،دط، 1992م، ج2، ص256.

[50]- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب: فضل صلاة العصر، الحديث: 555، دار ابن كثير، دمشق-بيروت،ط1، 2002م، ص143.

[51]- أحمد بن الأمين الشنقيطي، الدرر اللوامع على همع الهوامع، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان،ط1، 1999م، ج1، ص358.

[52]- السيوطي، همع الهمع، ج2، ص256.

[53]- بهاء الدين عبد الله بن عقيل، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث، القاهرة، ط20، 1980م، ج2، ص80.

[54]- عبده الراجحي، اللهجات العربية في القراءات القرآنية، ص187،188.

[55]- السيوطي، همع الهوامع، ج2، ص256. معاني القرآن، أبو زكريا يحي بن زياد الفراء، تح: صلاح عبد العزيز، دار السلام، القاهرة-مصر، ط1، 2013م، ج1، ص324.

[56]- السيوطي، همع الهوامع، ج2، ص256.

[57]- شرح ابن عقيل، ج2، ص85.

[58]- حسن عون، اللغة والنحو، مطبعة رويال، الاسكندرية-مصر، ط1، 1952م، ص61.

[59]- أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، فقه اللغة وأسرار العربية، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط2، 2000م، ص 362.

[60]- ميساء صائب رافع، لغة أكلوني البراغيث بين العربية ولهجات شبه الجزيرة العربية، مجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم-الجزائر، العدد18، 2018، ص204،203.

[61]- انظر: أحمد علم الدين، اللهجات العربية في التراث، ص59. عبده الراجحي، اللهجات العربية في القراءات القرآنية، ص159-193.

[62]- إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، ص84.

[63]- عبده الراجحي، اللهجات العربية في القراءات القرآنية، ص193،192.

[64]- جمال الدين ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تح: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق، ط1، 1964، ج1، ص326،325.